Factors Influencing the Emergence and Development of Arabic Literature in the Kingdom of Kanem Borno

By
Ahmad Umar Bashir

&
Abdulrahman Ademola Badmus
Department of Arabic Studies
University of Maiduguri, Borno State – Nigeria

Abstract

This article aims to unveil the factors of Arabic literature in the Kingdom of Kanem Borno, so the researchers worked on following up the reasons for the emergence of literature and its development through the period, and stand on the circumstances that led to its spread in various parts of the Kingdom, and the reasons that gave it its color and identity, which are either economic, social, political, cultural, geographic, etc. The importance of this article is evident in terms of the factors that create literature and give it its color, shape, feature and uniqueness, and define its meanings and methods. Perhaps it is difficult to understand the complete secret of literature, whatever it is, without paying attention to its factors, and it is not possible to taste its magic, reveal its beauty, determine its features, and properly identify its axes and trends without following up on its history and linking its results to its causes. In this study, the researchers used the descriptive historic method, where they defined the spatial environment of the Kingdom and defined the term Arabic literature because it is a path of difference between Arab critics, and then they are exposed to mention the factors affecting its inception. The most important of which is the geographical, social, economic, political and cultural factor. In the same vein, they discussed these factors, supporting what they said with examples from literary texts, poetry and prose. Ultimately, the article ends with a conclusion that is, summarizing the most important findings they reached, accompanied with the most important references that were relied upon during the study.

Keywords: *Kanem Borno, Arabic, Spread of Arabic literature, Trends of Arabic literature.*

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفصح الخلق لسانًا وأوفاهم بيانًا، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد: فهذه مقالة مختصرة تهدف إلى إلقاء الضوء عن نشأة الأدب العربي في مملكة كانم برنو والعوامل التي ساعدت في تطوره. وذكر بعض النماذج الشعرية والنثرية، وذلك لرفع الستار عن هذه الإنتاجات، حيث وُجدت هذه الإنتاجات الأدبية بغزارة وأدت دورًا هامًا في نشر الثقافة العربية وتطورها. هذا، إن دل فإنما يدل على أن المملكة أسهمت مساهمة فعالة في تطور الأدب العربي في المنطقة. حيث أنشأت مدارس عربية، وذلك نتيجة العلاقات التي كونت بين المملكة والدول العربية. وتحتوي المقالة على النقاط التالية:

خلفية تاريخية عن مملكة كانم برنو

موقعها الجغرافي

تعد مملكة كانم برنو من أهم الممالك التاريخية التي عاشت وبادت مع السنين في غرب إفريقيا، وذلك لطول بقائها لفترة تربوا على تسعة قرون، ولكونها من أهم المراكز الثقافية التي ازدهرت فيها الثقافة الإسلامية والعربية في بلاد السودان الأوسط: الأمر الذي دفع المؤرخين والباحثين من العرب وغيرهم إلى الاعتناء بها والبحث عنها[1]. وتتوزع الأراضي التي مهدت عليها المملكة في بلاد النيجر والكمرون وتشاد ونيجيريا الحالية. وتتوسط بحيرة تشاد قلب هذه المملكة، وإن حدودها لتبلغ حوالي ثلاثمائة ألف ميل مربي (300،000 م، م). مع أن وصف المملكة قد ورد في مؤلفات بعض مؤرخي العرب القدامى، إلا أن تاريخ تأسيسها وإنشائها لا يزال غامضًا، وأنه لا يزال موضع نقاش بين الباحثين والمؤرخين. ولكن ورود ذكر المملكة في مؤلفات بعض المؤرخين الذين عاشوا في القرن التاسع الميلادي، أمثال: اليعقوبي يجعل الباحث يعتقد اعتقادًا جازمًا بأن المملكة كانت موجودة بالفعل في القرن التاسع عشر الميلادي.

عصورها التاريخية:

وقد مرت المملكة في مراحل توطيدها وازدهارها وسقوطها بعصرين تاريخيين، وهما العصر الكانمي، والعصر البرناوي، وهذا هو السبب في استعمال لفظة كانم – برنو في الإشارة إليها. فالعصر الكانمي يمتد من قيام المملكة بفترة لا تعرف حقيقتها بالضبط، لفقد المصادر التي تشير إلى تاريخ المملكة وأحوالها قبل القرن التاسع الميلادي، إلى نهاية القرن الرابع عشر الميلادي. ففي هذا العصر كانت برنو ولاية تابعة وخاضعة لكانم، وكانت العاصمة وقاعدة الخلافة مدينة جيمي (Njimi)، في إقليم كانم شرقي بحيرة تشاد[2]. وأما العصر البرناوي فيبدأ من أواخر القرن الرابع عشر الميلادي إلى نهاية المملكة في غمرة الاستعمار الأوربي الحديث، في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، وفي هذا العصر أصبحت كانت جزءًا من مملكة برنو وإن لم تخضع لها تمام الخضوع كما صارت العاصمة في مدينة غزرغمو (Gargagamu) ، في إقليم برنو على ضفة نهر يوبي (Yobe)، غربي بحيرة تشاد، وقد اضطر ملوك المملكة إلى زحف قاعدة الخلافة عن مدينة جيمي لسبب اضطرابات سياسية ظهرت في الإسرة الحاكمة، ونتيجة للحروب المتواصلة مع قبائل البُلاَلَهْ (Bulalah)، الأمر الذي ألجأ السلطان علي غاجي (Ali Gaji) في أواخر القرن الخامس عشر إلى إنشاء مدينة غزرغمو واتخاذها مقرًا للخلافة[3].

وقد بدأ الضعف يدب في سيادة المملكة بازدياد قوة الفولانيين في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي، مما أدى إلى فرار المَايْ أحمد بن علي، وتسلم الشيخ محمد الأمين الكانمي زمام السلطة. وظلت الأسرة الكانمية تحتفظ بالسلطة إلى أن وقعت المملكة في حوزة المستعمرين في مطلع القرن العشرين، فاستطاع المستعمرون بدهائهم أن يقلّصوا من نفوذ السلاطين وأن يخفضوا من قوتهم، فعُدُّوا بذلك ملوكًا تقليديين[4].

أهم القبائل التي استوطنت المملكة:

لقد انتشرت عدة قبائل حول شواطئ بحيرة تشاد واستقرت فيها وامتزج بعضها ببعض، ووصل إليها عدد كبير من الكوشيين (الأحباش) منذ الأزمنة القديمة. وهناك أعداد جمة من قبائل البربر الصحراوية التي هبطت من ناحية الشمال، واختلطت واندمجت بالوطنيين الزنوج المقيمين حول شواطئ البحيرة. فعلى هذا يشير المؤرخون وعلماء الأجناس البشرية إلى أن منطقة بحيرة تشاد تضم ما لا يقل عن خمس عشرة لغة متباينة[5]، فمن أهم القبائل التي استوطنت هذه المملكة، هي:

1/ قبائل الصَّوْSau/So:

والمعروف قليل عن أصول هذه القبائل وتحركاتها واستقرارها في البقعة، مما أدى إلى اختلاف المؤرخين في البحث عن أصولهم، والمحتمل أن قبائل الصو من أصل نيلوتي، أي من حوض النيل، ويمتازون بطول القامة كغيرهم من سطان وادي النيل. وهذا ما يلقي الضوء على شهرتهم بالعمالقة. وتفيد المصادر بأنهم قد كونوا دولة لهم في واحة كاوار (Kawar)، ومركز هذه الدولة هو مدينة بِلْمَا (Bilma)، ومن ثم نزحوا إلى مناطق في جنوب بحيرة تشاد كما انتشروا في مناطق واسعة في إقليم برنو. وكانت هذه الدولة خاضعة لسلطة الزغاوة في كانم[6].

2/ الزغاوة Zaghawa:

تُعرف الزغاوة بأنها من المجموعات الأوائل التي قطنت منطقة كانم برنو لسبب اتصالها بالإسلام. وقد جاء ذكرها كشعب متميز في كتابات المؤرخين العرب القدماء، والغربيين المحدثيين الذين كتبوا حول تاريخ بلاد السودان والصحراء، حتى يُنسب إليها الفضل في إنشاء مملكة كانم، ومعظم هذه المصادر تشير إلى أن الزغاوة قوم سود رُحَل يحترفون الرعي والزراعة. ويبدو أنه لم تكن لديهم حكومة مركزية، بل إن زعماء القبائل والعشائر هم الذين يتحكمون في شئون الرعية، وقد بسطوا نفوذهم على سائر القبائل المنتشرة في المنطقة قبل ظهور الأسرة السيفية الماغومية على الساحة السياسية للمنطقة[7].

3/ البُلاَلَهْ (Bulalah):

ومن القبائل الهامة التي أدت دورًا كبيرًا في التاريخ السياسي لمملكة كانم – برنو، البلاله، كانت تقطن هذه المجموعة جنوب شرقي بلاد كانم، ومركز نفوذها هو إقليم مَادَان (Madan)، شرقي بحيرة فِتْرِي (Fitri). اشتهرت البلاله في تاريخ كانم – برنو بالتمرد على السلطة السيفية ومقاومتها الشديدة لسيطرتها، ومنازعتها في الحكم لقرون عديدة، وبالتسبب في قتل كثير من مايات كانم – برنو في سبيل إشباع طموحاتها السياسية[7].

وعلى الرغم من نزاعها السياسي الشديد مع الأسرة السيفية الحاكمة، تزعم البلاله الإنتماء إلى أصل واحد مع الكانمبو، حيث ادعت هي الأخرى الانتساب إلى سيف بن ذي يزن الحميري.

4/ الكانمبو/الكانوري Kanembu/Kanuri

والكانمبو تعتبر أهم المجموعات التي استوطنت مملكة كانم – برنو، إذ إليها يعود الفضل في تأسيسها، ومنها ظهرت الأسرة الحاكمة التي ظلت تحكم بلاد كانم – برنو منذ تأسيس الدولة فيما بين القرن التاسع والعاشر الميلاديين إلى سقوطها في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي. كما يُعزى إليها الفضل في نشر الإسلام بين القبائل الوثنية المنتشرة في المملكة وما جاورها من البلدان.

على أن كلمة "الكانمبو" كإسم لهذه المجموعة أطلقها عليها قبائل التُوبُو (Tubu) التي كانت تقيم في شمال الصحراء. فهي تعني الجنوبيين الذين يقيمون جنوب الصحراء، كما تعني كلمة "كانم" الجنوب، لدى التوبو[8]. ويظهر أن المجموعات الثلاث المذكورة سابقًا: الزغاوة، والبلاله، والكانمبو، كانت تشكل القبائل الرئيسية التي كانت تقطن الشمال، والشمال الشرقي لبحيرة تشاد في تاريخها المبكر. وظفرت مجموعة الكانمبو تحت زعامة الأسرة السيفية الماغومية بتسلم زمام السلطة من بين الجموعات الأخرى[9].

5/ القبائل العربية "الشُّوا" Shuwa Arab:

تعد القبائل العربية من الجموعات الهامة التي استوطنت مملكة كانم برنو، ومنطقة بحيرة تشاد خاصة، وتُعرف هذه القبائل لدى الكانوري وغيرهم من المجموعات باسم "الشُّوا". وقد وصلت القبائل العربية من الشرق عن طريق النيل وعبر الصحراء، ثم انتشرت في بلاد وَادَيْ، وبَاجِرْمِي، وشرقي منطقة برنو في الفترة الواقعة ما بين القرن الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين[9]. ولقد كان للقبائل العربية أثر فعال في نشر الثقافة العربية إلى جانب الدين الإسلامي في المملكة، فعلى هذا يقول ياقوت الحموي واصفًا أهل كانم في كتابه معجم البلدان: "وهم على زي العرب وأحوالها"[10]. هذا إلى جانب الدور الكبير الذي أدته في الساحة السياسية لمملكة كانم – برنو.

وصول الإسلام و انتشاره في مملكة كانم – برنو:

إن أول ذكر لمملكة كانم برنو في المصادر العربية، ورد على لسان اليعقوبي (ت 284هـ/897م)، الذي ذكر في كتاباته أن بلاد كانم يسكنها شعب يُعرف باسم الزغاوة، وأن الوثنية كانت سائدة في كانم آنذاك[11]. وأما بالنسبة لوصول الإسلام إلى كانم – برنو، فتفيد المصادر الكانورية المحلية أن الإسلام قد وصل إلى المنطقة في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، حينما أعلن الماي حُمي جِلْمِي (Mai Hume Jilmi)، الملك الثاني عشر من سلالة السيفين، إسلامه. وهو الذي حكم فيما بين عام 1085م وعام 1097م[12]. وذلك بجهود الداعية الإسلامي المشهور محمد بن ماني، غير أن هذا لا يعني أن هذه الحادثة هي أول بذرة للإسلام في المملكة، إذ تشير المصادر نفسها إلى أن هذا العالم قد عاش في برنو لمدة طويلة، وأنه قد عاصر خلالها حوالي أربعة ملوك قبل الملك حمي جلمي، وهذا يشير من وجه آخر إلى أن الإسلام كان منتشرًا بين الشعب والأفراد في المملكة في أعصر الملوك السابقين قبل أن يكون دينًا رسميًا للدولة في عصر الماي حمي جلمي[13].

وعلى هذا يمكن القول في أن مملكة كانم برنو بدأت تتلقى التأثيرات الإسلامية منذ القرن الأول الهجري/السابع الميلادي – إذ افترض وجود المملكة في تلك الفترة – وأن الإسلام كان منتشرًا بين الشعب بجهود الدعاة والفقهاء والتجار المسلمين. ولكن لم يتم له الاعتناق الرسمي من قبل المملكة إلا في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي حين أعلن الماي حمي جلمي إسلامه وقام بمجهود كبير في نشره في المملكة وخارجها.

الثقافة العربية في مملكة كانم برنو:

يلاحظ أن من خصائص الدين الإسلامي في طريق انتشاره، مرافقته للثقافة العربية. هذا يعني أن اللغة العربية وثقافتها – كانت – ولا تزال – ترافق الإسلام حيثما توجه. فلم يضع الإسلام قدميه في بقعة إلا والثقافة العربية معه، إذ أن اللغة العربية هي الواسطة الكبرى التي تنقل الرسالة الإسلامية إلى معتنقيها، كما أنها هي الوسيلة إلى فهم هذه الرسالة، فعلى هذا يقول المستشرق تريمنغهام (J.S. Trimingham)، معلقًا على هذه الظاهرة: "إن الجانب الجدير بالاهتمام في انتشار الإسلام هو العلاقة بين العوامل اللغوية والعوامل الدينية، إذ أن انتشاره في أي مكان كان مصحوبًا بتلقي المفردات العربية"[14].

ويضاف إلى ذلك أن المملكة قد نالت شهرة فائقة في ميدان العلوم الإسلامية، ولاسيما العلوم القرآنية، الأمر الذي ساعد على تدفق العلماء والفقهاء وطلاب العلم للنهل من مناهلها العلمية. وعلى هذا يقول السلطان محمد بللو في كتابه "إنفاق الميسور"، منوهًا بمنزلة برنو في العلوم القرآنية، رغم نزاعه الشديد مع سلاطين برنو في عهده: "قد انتشر الإسلام في برنو انتشارًا واسعا بين سلاطينهم ووزرائهم ورعيتهم، و اتقن الكثير منهم قراءة القرءان الكريم و تجويده على ظهر القلب وقاموا برسمه بالخط المغربي "[15].

العوامل التي ساعدت في تطور الأدب العربي:

وقد تطور الأدب العربي في مملكة كانم برنو، بعدة عوامل، أهمها:

1/ تدفق العلماء والتجاروالزوار إلى المملكة:

فبما أن الإسلام قد وصل إلى بلاد السودان، بما فيها كانم – برنو، بطرق سليمة، أن فضل نشره يعود إلى حد كبير إلى العلماء والتجار والزوار والوافدين إلى المملكة من المشرق وشمال إفريقيا. وقد ذكر الباحث آنفًا أن دينونة الأسرة الحاكمة لمملكة كانم برنو بالإسلام والاعتراف به كدين رسمي لمملكة قد تم بجهود الداعية الإسلامي محمد بن ماني، أحد العلماء الزوار من فزان، فكان له ولأمثاله الفضل كذلك في نشر الثقافة العربية وتطور الأدب العربي إلى جانب الدين الإسلامي في المملكة.

2/ إهتمام المايات (الملوك) بالعلم والتعليم:

إن اهتمام مايات كانم – برنو بالعلم والتعليم لم يقف عند حد التشجيع والحث، بل امتد إلى مشاركتهم الشخصية في هذه العملية، وإغداقهم العلماء بالعطايا والهدايا الضخمة اعترافًا بأعمالهم النبيلة وتشجيعًا لهم. وأكبر شاهد على هذا ما ورد في "المحرم" الذي ازدهره الماي حمي جلمي للشيخ محمد بن ماني أن:

> "الملك بُولُو (Bulu) قرأ مع محمد بن ماني من "**تبارك الذي بيده الملك**" إلى "**من الجنة والناس**" فأعطى معلمه خمسين جمَلا، والملك أَرْكِي (Arki) قرأ من "**يس**" إلى "**والناس**" وأعطى معلمه ستين جملاً، والملك كَدَي بن أرجو (Kadai B. Arju) قرأ من "**كهيعص**" إلى "**والناس**" وأعطاه سبعين جملاً، والملك عبد الجليل قرأ من "**المص**" "سورة الأعراف، إلى ما فوقها وأعطاه ثمانين جملاً. والماي حمي بن عبد الجليل قرأ سرًا من "سورة البقرة" إلى "الناس" ثم قرأ الرسالة (أي رسالة ابن أبي زيد القيرواني) مرتين، وأعطى ابن ماني مائة جمل، ومائة دينار، ومائة درهم، ومائة رقيق، كل ذلك للقراءة والتعليم الذي ناله منه"[16].

فهذه الشواهد تدل دلالة واضحة على اهتمام ملوك كانم برنو وأمرائها بالعلم والتعليم.

3/ فريضة الحج:

تفيد المصادر التاريخية المحلية أن ملوك كانم برنو كانوا مهتمين بأداء فريضة الحج وزيارة البقاع المشرفة في الحجاز. ويشهد على ذلك كثرة من يلقب بـ"الحاج" من بين الملوك، كما يلاحظ ذلك في القائمة بأسمائهم. وأشهر الملوك في هذا المجال، السلطان دونمه بن حمي (Dunoma B. Hume)، الملك الثالث عشر الذي حكم فيما بين عامي (1098-1150م). وحسب ما جاء في "ديوان سلاطين برنو" أن هذا الملك قد أدى فريضة الحج مرتين. وكان يترك في كل من حجته الأولى والثانية حوالي 300 رقيقًا في مصر، ووافته المنية بغرق سفينته وهو في طريقه لأداء الحجة الثالثة[17].

لقد كان لأداء فريضة الحج دور فعال في تطور الأدب العربي والثقافة الإسلامية في كانم برنو، وذلك لما له من إتاحة الفرص للملوك وحواشيهم التي تضم العلماء والفقهاء للاتصال بأقرانهم في الحجاز وسائر البلاد العربية والإسلامية والنهل من مناهلها العلمية والثقافية. كما أنها تعطيهم الفرص لمقابلة العرب ومشافهتهم مما يساعد على تلقي اللغة العربية وثقافتها من منابعها الأصلية.

4/ إنشاء المدارس:

ونتيجة للصداقة والعلاقات التي كُوِّنَتْ بين ملوك كانم برنو وبين سلاطين الدول العربية الإسلامية عن طريق أداء فريضة الحج، رأى ملوك كانم برنو أن ينشأوا مدارس في البلاد العربية لإيواء أبناء برنو في طريقهم للحج، ولتلقي العلوم الدينية في تلك البلاد. ومن أشهر هذه المدارس، مدرسة ابن رشيق التي أسسها الماي دونمه ديبباليمي (Dunoma Debalemi)، في القرن الثالث عشر الميلادي بالقاهرة، وقد كانت لهذه المدرسة شهرة فائقة حيث انجذبت إليها أنظار مؤرخي العرب وكُتابها كالقلقشندي حيث يقول في كتابه "صبح الأعشى" نقلاً عن العمري صاحب كتاب "مسالك الأبصار" :"وقد بنوا (أي أهل برنو) مدرسة للمالكية بالفسطاط ينزل بها وفودهم"[18].

وبناءً على ذلك، لقد أثبت بعض الباحثين والدارسين أنه كان هناك علاقة متينة بين جامع الأزهر، وأهل برنو، وتمثلت هذه العلاقة في إنشاء "الرواق البرناوي" ضمن أروقة الأزهر، ينزل فيه طلاب العلم من برنو وغيرها من بلاد السودان. وظل هذا الرواق باقيًا إلى الوقت الحاضر[19].

لقد أتاح إنشاء هذه المدارس في البلاد العربية فرصًا سائحة لأبناء كانم برنو للاتصال بالعلماء والفقهاء وتلقي العلوم من منابعها الصافية، ثم لنشرها في بلادهم فيما بعد.

نشأة الأدب العربي وتطوره في مملكة كانم برنو:

تمثل الحركة الأدبية جزءًا من النشاط الثقافي العربي الذي تطور وازدهر في مملكة كانم برنو، بعد اتصالها بالإسلام. فالاعتراف به كدين رسمي للمملكة، وبالعربية كلغة رسمية للمملكة من قبل السلاطين بعد الحافز الأكبر لنمو الحركة الأدبية في المملكة. فأصبحت الكتابة العربية تستخدم لا لسد حاجات المملكة في مجال الإدارة والقضاء والمراسلة والتدوين وما إلى ذلك فحسب، بل تستخدم لأغراض أدبية وفنية أيضًا. ويمكن أن يتطرق الباحث لهذه الحركة ومدى نموها لدى أدباء المملكة وكُتَابها عبر العصور التاريخية من الناحيتين الآتيتين:

1/ الكتابات الشعرية:

إن الكتابة الشعرية تعد من أهم النواحي التي تمثل الحركة الأدبية لأدباء كانم برنو، كما أنها تشكل جانبًا هامًا من حوانب الثقافة العربية التي انتشرت في المملكة بمرافقة الدين الإسلامي. رغم أنه من الصعوبة الوقوف على الفترة التاريخية التي بُدئ فيها الكتابة الشعرية في المنطقة، لكن نلمح من خلال الشواهد التاريخية أن الكتابة الشعرية كانت من النشاط الأدبي لأدباء المملكة، وأنه قد عاش في المملكة شعراء بارعون ساهموا في مد تيار الشعر العربي إلى بلاد السودان، منذ زمن بعيد.

فمن أقدم أدباء المملكة الذين جالت أقلامهم في الكتابة الشعرية، أبو إسحاق إبراهيم بن يعقوب الكانمي، الذي ورد ذكره في كتابات بعض مؤرخي العرب وكتابها القدماء، يشير إليه مثلاً صاحب كتاب "معجم البلدان" ياقوت الحموي في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي، بقوله: "وفي زماننا هذا شاعر بمراكش المغرب يُقال له الكانمي، مشهود له بالإجادة، ولم أسمع شيئًا من شعره، ولا عرفت اسمه"[20]. وفي الفترة ما بين أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الميلادي، وهي الفترة التي صادفت إنشاء دولة السيفين في برنو بعد سقوطها في كانم، ظهر على مسارح العلم والثقافة للمملكة علماء وأدباء كثيرون، منهم الشيخ عمر بن عثمان مَسْبَرَمَهْ (Masbarma)، والشيخ القاضي أحمد بن عبد القوة[21]، وغيرهما.

وفيما يخص الشيخ مسبرمه، يذكر المحرم الذي أصدره السلطان علي غاجي له أنه كان له باع طويل في علم العروض إلى درجة أنه كان يعلمه الناس بدون معاناة ومشقة فضلا عن تبحره في علوم التفسير والحديث والتجويد. ويذكر الإمام أحمد بن فرتو، الذي جاء بعده، في كتابه "غزوات برنو" الذي دوّن فيه غزوات السلطان إدريس ألومه في برنو أنه قد اقتبس فكرة التدوين غزوات السلطان إدريس كتغرمبي (Katagarmabe) الذي كان معاصرًا له والذي كان خلفًا للسلطان علي غاجي[22]. غير أنه للأسف أن الباحث لم يضع يده على هذا الكتاب لضياعه مع السنين. لكن لا يستبعد إمكانية صدور أعمال شعرية من هذا العالم نظرًا إلى منزلته العلمية والثقافية.

وعاش في النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي الإمام أحمد بن فرتو، وفي القرن الثامن عشر الميلادي تطور الكتابة الشعرية وتوطدت توطيدًا قويًا بدليل ظهور كثير من الأدباء الذين كانت لديهم شهرة فائقة في كتابة الشعر العربي، أمثال: الشيخ الطاهر بن إبراهيم الفلاني (ت 1190هـ/1776م)، المشهور محليًا بفيرمه، صاحب الإنتاجات الأدبية، والمنظومات العلمية القيمة، ومن أشهر أعماله الشعرية "قصيدة في مدح سلطان عصره، الماي علي بن دونمه" "وقصيدة البواب" "وقصيدة النصحية من سماع أقوال الوشاة والسعاية" المشهور بـ فَانِي فَانِي (Fane-Fane)[23] وغيرها من الأعمال الأدبية.

وعاش في القرن نفسه، الإمام محمد بن الحاج عبد الرحمن البرناوي، المشهور محليًا بشيخو أجرَمّي (Shehu Ajirammi) (ت1169هـ/1755م). وهو يعد من أبرز أدباء العصر الذين أسهموا في تطور الحركة الأدبية والفكرية للمملكة. ومن أشهر أعماله الشعرية: قصيدة "شرب الزلال" التي عالج فيها مسائل الحلال والحرام في الإسلام. ومنظومة بعنوان: "الكوكب الدري" في نظم ما جاء في الأخضري" التي نظم فيها كتاب "مختصر الأخضري في الفقه". وله منظومة أخرى في النحو سماه "مفيدة الطلاب"[24]. ومن أمثلة ذلك أرجوزته التي نظمها في بحر الرجز، حيث يقول:

الحمد لله الذي هدانا ** لدينه القويم واجتبانا
الحمد لله الذي قد عيَّنا ** لنا الحلال والحرام بَيَّنَا
ثم الصلاة والسلام سرمدًا ** على النبي الهاشمي أحمدا
وآله وصحبه ذوي الهدى ** وتابعي منهاجهم بالإقتدا

إلى أن قال:

فأصل دين الله والعباده ** أكل الحلال فخذ الإفادة
ولا يحل أكل لحم من ذَبَحْ ** غصبا ولو طبخ هذا ما اتضح
والناصر اللقاني والقرافي ** فتواهما بذاك يا موافي
ولحم مكس مثله فيما اعتزى ** لمدخل ولابن ناج جَوّزَا

وفي القرن التاسع عشر الميلادي أن الكتابة الشعرية قد بلغت درجة عالية من النمو والتقدم، حيث أن هذه الصناعة لا تتوقف على العلماء والأدباء بل امتدت إلى السلاطين والأمراء. ويمثل هؤلاء الشيخ محمد الأمين الكانمي الذي تسلم زمام السلطة في برنو حين ساد فيها الفوضى والاضطرابات السياسة نتيجة للنزاع السياسي بين البرناويين والفلانيين. ومن أشهر أعماله الشعرية قصيدته المشهورة بـ"نسيم الصبا" التي وصف فيها انتصاره على الباغرميين وعودته السالمة إلى كُوكَاوَا (Kukawa) بعد المعركة[25]، حيث يقول:

نسيم الصبا إن جئت ربعا بكوكوا ** وشاهدت ما في الباب من متردد
يسائل ريح الصبح والعصر هل أتى ** من القوم ذو زاد وغير مزود
لينهي إلى خود أطالت سهادها ** عشائر تنفي ما لدى الجاش من وجد
كحيلة طرف ضارع البان قدها ** مليحة أوصاف موردة الخد

إلى أن قال:

بأن عظيم المنّ جل ثناؤه ** حبانا نهارا في الطغات ذوي الجحد
أباد جنود الشرك بعد عتوهم ** وباؤا بأنواع من الخزي والطرد
أتيناهم يوم الخميس بجحفل ** كصيب مُزْنٍ هُدَّ بالبرق والرعد
ولا ماء إلا الضامرات وفوقها ** كماة من الأبطال والأسد الورد[26]

وقد عاصر الكانمي، الإمام يوسف بن عبد القادر الغرغري، العالم الصوفي الأديب البارع، صاحب الإنتاجات الأدبية والعلمية القيمة، وأشهر أعماله الشعرية: قصيدته المسمى "البردة الجيمية في مدح النبي صلى الله عليه وسلم" التي تعتبر أروع أعماله الشعرية. وله أيضا قصيدة في رثاء الشيخ محمد الأمين الكانمي، كما له منظومة في علم النحو سماها "منح الوهاب في قواعد الإعراب"[27]. ومن أمثلة ذلك قصيدته البردة الجيمية في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، حيث يقول:

صلى الإله على النبي الأبهج ** ما صاب صيب كل غيم زَعْبَجِ
ولد النبي كأن نور جبينه ** بدر تبلج فوق ليل دعلج
فتضوعت أرجاء مكة مندلا ** وقت الولاد بعرفه المتأرج
والشهب دانت والهواتف بشرت ** أن بات عند الكون صدر الْخُرْفُجِ

إلى أن قال:

هذا النبي الهاشمي محمد ** هذا المزيل كهانة المتمجمج
هذا الذي حاز السناء إلى السنا ** وافضلّ من جدواه كل خبربج
نسخت شريعته شرائع من مضى ** فغدت ضوابطها بخير رهمج
شمس الفضائل نور كل دجنَّة ** جم العجائب مزدر للعمهج[28]

فكل هذه الشواهد تشير إلى أن للكتابة الشعرية أصولاً قائمة في كانم برنو منذ قرون بعيدة، وأنها تمثل جزءًا هامًا من تطور الحركة الأدبية التي ازدهرت في المنطقة بعد اتصالها بالإسلام، وأن كتابة الشعر ظلت تمثل جانبًا هامًا من جوانب الثقافة العربية إلى الوقت الراهن.

الكتابات النثرية:

تحتل الكتابة النثرية المنزلة الثانية بعد الكتابة الشعرية في تطور الحركة الأدبية في كانم برنو، عبر عصورها التاريخية، غير أنها، على ما يبدو، تفوز بالأسبقية على الكتابة الشعرية في نشأتها وتطورها. وذلك لأن بعضًا من الأعمال التي تمثل هذا النوع من الكتابة تعود إلى القرون الأولى التي ظهر فيها الإسلام في ربوع هذه البلاد حتى وصل إلى قصور السلاطين حيث تم الاعتراف به كدين رسمي للمملكة[29].

ويبدو أن الحاجة إلى استخدام الكتابة، وخصوصًا النثرية منها؛ من أوليات ما شعر بها ملوك كانم برنو بعد دينونتهم بالإسلام واتباعهم نظامه السياسي. لأن الإدارة وما يقتضيها من شئون الرعية كالقضاء، والإدارة المالية، وجلب الضرائب، وتدبير الشئون الحربية، والمراسلات، والمكاتبات، وتدوين التاريخ، وما إلى ذلك، تستدعي طبعيًا استعمال الكتابة بنطاق واسع من قبل السلاطين وكتابهم، فمهما يكن من أمر إن ما نعثر عليه من الكتابات النرية لأدباء المملكة يمثل الآتي[30]:

أ/ المحارم:

فالمحارم هي عبارة عن خطابات أو وثائق امتيازية تصدرها المايات وسلاطين المملكة لكبار العلماء وأسرهم، تتعلق بمنح أصحابها إمتيازيات موروثة، كالإعفاء عن الضرائب، والخدمة العسكرية، واستضافة عمال المملكة، والتصرف بأموالهم وممتلكاتهم، تكريمًا لهم واعترافًا لهم وخدماتهم النبيلة تجاه المملكة والمجتمع.

وقد أصدرت هذه المحارم كثير من مايات كانم برنو، وأقدم محرم عثر عليه هو ذلك المحرم الذي أصدره الماي حمي جلمي للداعية الإسلامي محمد بن ماني وأسرته في القرن الحادي عشر الميلادي. ثم اقتفى المايات اللاحقون أثر الماي حمي جلمي في إصدار هذه المحارم لرجال العلم المتفوقين وأسرهم في عصورهم المختلفة. وقد أورد بَالْمَرْ ترجمة إنجليزية لما يربو على ثلاثين محرمًا بعد أن تم العثور عليها في كتابيه:

"The Bornu Sahara and Sudan". & "The Sudanese Memoris".

ويبدو أن نظام إصدار هذه المحارم لدى سلاطين كانم برنو لم يتوقف على طبقة العلماء ورجال الدين فحسب، بل امتد إلى المتفوقين والممتازين في بعض الصناعات والحرف التي لها أثر في تقدم المملكة والمجتمع، كالتجار، والصيادين والمزارعين، والحلاقين وغيرهم[31].

ومهما يكن من أمر، فإن لهذه المحارم قيمة تاريخية، إذ تعتبر من أهم المصادر التاريخية لمملكة كانم برنو، كما لها قيمة أدبية بحيث أنها تعتبر من أهم الإنتاجات النثرية التي طورت الحركة الأدبية لدى أدباء المملكة وكتابها. وكانت المحارم عادة تصدر باللغة العربية، اللغة الرسمية للمملكة، وإن أسلوب كتابتها يوحى إلى حد بعيد بتأثر كتابها بأساليب الكتاب العرب القدماء حيث تبدأ بالبسملة والحمدلة، والصلصلة، وسرد سلسلة من الصفات والألقاب للسلطان المانح، والاقتباس من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال الأدباء والحكماء وغير ذلك[32].

ب/ الكتابات التاريخية:

ومن الأعمال النثرية التي تمثل الحركة الأدبية لمملكة كانم برنو، ما عثر عليه من الكتابات التاريخية. وهي عبارة عن أعمال يرمي فيها كتابها إلى تدوين الحقائق التاريخية، كتواريخ السلاطين وأنسابهم، والأحداث الرئيسة التي جرت في عصورهم المختلفة، ولعل أهم الآثار التي تمثل هذا النوع من الكتابات: ديوان سلاطين برنو، والغَرْغَام (Gargam) ، وكتابات أحمد بن فرتو، وكتابات محمد ينبوع بن علي أحد أمراء المملكة[33].

أما "ديوان سلاطين برنو" فهو كُتيب يحتوي على تواريخ سلاطين كانم برنو وأنسابهم مع العناية بمدة حكم كل سلطان وموطن وفاته، والأحداث الهامة التي جرت في عهده. ابتداءاً من السلطان سيف بن ذي يزن، أبو الأسرة السيفية، إلى السلطان دونمه بن أحمد، آخر سلاطين المملكة. واللغة المستخدمة في كتابته هي العربية، وهذا الديوان مع طابعه الموجز، يعتبر من أهم السجلات التاريخية المحلية التي حافظت على التراث التاريخي لمملكة كانم برنو، كما يعد من أهم الآثار النثرية التي تمثل الحركة الأدبية لمملكة عبر العصور[34].

والغَرْغَام (Gargam) أيضا عبارة عن كتيب يحتوي على تواريخ سلاطين كانم برنو وأنسابهم، وذكر مواطن وفاتهم، ويتميز عن الديوان المذكور بكونه مكتوبًا باللغة الكانمبو باستخدام الحروف العربية، وبكونه أكثر إيجازًا من الديوان، إذ لا يحتوي الغرغام على ذكر الأحداث التي جرت في عصور السلاطين إلا في أماكن قليلة، كما لا يهتم بذكر مدة حكم كل سلطان في عهده[35].

وبمرور الزمن، أن الكتابة التاريخية ازدهرت ازدهارًا واسعًا لدى كُتاب كانم برنو وأدبائها، فصارت من أبرز الأعمال الأدبية التي تباشرها أيدي الكُتاب والأدباء، ويتمثل هذا في كتابات الإمام أحمد بن فرتو، والإمام الكبير، ومؤرخ بلاط السلطان إدريس بن علي (أَلَوْمَهْ) في القرن السادس عشر الميلادي. فمن أبرز أعماله الأدبية في هذا المجال كتاباه؛ "غزوات السلطان إدريس في برنو" و "غزوات السلطان إدريس في كانم" اللذان سجل فيهما الغزوات والوقائع والأعمال الجهادية والإصلاحية التي قام بها السلطان إدريس في مملكة برنو، وكانم على التوالي[36].

وإلى جانب كتابات الإمام أحمد بن فرتو، يبدو أن المعثور عليه من الكتابات التاريخية في القرون اللاحقة، قليل جداً، ومما يمثل هذا القليل أعمال أحد أمراء الدولة السيفية، محمد ينبوع بن علي بن الحاج دونمه، الذي كان ابنا للسلطان علي بن دونمه الذي حكم فيما بين (1750-1791م)، فمن أبرز أعماله التاريخية التي تمثل الكتابات النثرية: "كتاب البرنو" و "كتاب تراتيب إدارة مملكة التُّبع الأكبر"[37].

فالكتاب الأول هو عبارة عن تاريخ الأسرة السيفية الحاكمة، لأوائل سلاطينها وأنسابهم والوقائع والأحداث الهامة التي جرت في عهودهم، ابتداءاً من عهد السلطان سيف بن ذي يزن إلى عهد السلطان علي غاجي، مؤسس مدينة غزرغمو[38]. بينما الثاني هو عبارة عن وصف للنظام السياسي للمملكة السيفية، بذكر أهم المناصب والوظائف التي يتشكل منها نظام المملكة، وشروط استحقاقها قبل أن تتم التولية لأي منصب أو وظيفة من هذه المناصب والوظائف في ضوء الشريعة الإسلامية[39].

ج/ الرسائل:

ومن الكتابات النثرية التي تداولها كُتاب كانم برنو أدباؤها الرسائل. وهي كذلك عادة تكتب بالعربية، ويستخدمها السلاطين كوسيلة للاتصال بالولاة والحكام في أقاليم المملكة أو بسلاطين وملوك الدول والبلاد الأخرى، وخصوصًا البلاد العربية في المشرق والمغرب[40]. وقد ثبت في تاريخ مملكة كانم برنو أن هناك علاقات سياسية وتجارية وعسكرية وثقافية بينها وبين البلاد العربية، وبالأخص بلاد شمال إفريقيا كمصر وتونس والجزائر والمغرب وليبيا، وكذلك الامبراطورية العثمانية العظمى. ويظهر، كما أشار الباحثان سابقًا، أن فريضة الحج كانت عاملاً أساسيًا لتوطيد العلاقات بين ملوك كانم برنو وبين سلاطين هذه البلاد. وتمثلت هذه العلاقات في إنشاء بعض المدارس والمؤسسات لإيواء الطلاب والحجاج والتجار من المملكة.

ولقد أدت الرسائل دورًا كبيرًا في تقوية تلك العلاقات التي أرست دعائمها فريضة الحج، إذ تبودلت بين ملوك كانم برنو وأقرانهم في تلك البلاد رسائل عديدة. فمن أقدم الرسائل التي توصل إليها الباحثين رسالة السلطان عثمان بن إدريس التي بعث بها في القرن الرابع عشر الميلادي إلى سلطان مصر في عهد المماليك، السلطان الظاهر بَرْقُوق، يشكو فيها من اعتداءات بعض القبائل العربية على أهل برنو، ويستنجده عليها[41]. وهذه الرسالة تعتبر من أروع ما أنتجه كُتاب المملكة في ميدان المراسلات[42].

وقد عثر الباحثان إضافة إلى ما تقدم، على بعض الرسائل التي بعث بها بعض سلاطين البلاد الإسلامية إلى سلاطين كانم برنو، كرسالة السلطان مراد الثالث، أحد سلاطين الامبراطورية العثمانية العظمى، إلى السلطان إدريس ألومه في القرن

السادس عشر الميلادي. وذلك كرد من السابق على رسالة كان قد بعث بها اللاحق لتحقيق بعض المطالب منه. هذا إلى جانب العديد من المراسلات التي يؤكد الباحثون بأنها حد جرت بين السلطان إدريس وبين سلاطين المغرب الأقصى في عهد السعديين، السلطان أحمد المنصور[43].

وفي القرن التاسع عشر الميلادي، أصبحت الرسائل سلاحًا متينًا في الميدان السياسي لمملكة كانم برنو، ويتضح ذلك في المراسلات المتواصلة بين الشيخ محمد الأمين الكانمي، سلطان برنو آنذاك، وبين السلطان محمد بلّو، بأمر من الشيخ عثمان بن فودي، سلطان الخلافة العثمانية في سكوتو، وقد أورد السلطان محمد بلّو في كتابه "إنفاق الميسور" بعضًا من الرسائل التي كتبها الكانمي إلى زعماء سكوتو في الدفاع عن أهل برنو ودحض حجج الفولانيين في غاراتهم على أراضي برنو المسلمة، إلى جانب بعض الرسائل التي بعث بها إلى الكانمي في الدفاع عن موقف الفولانيين في هذا النزاع. وقد كتب الكانمي إلى جانب مراسلاته لنبلاء الفولاونيين في سكوتو عديدًا من الرسائل إلى الحكام، والعلماء، والأصدقاء، والإخوان، والشعوب، في البلدان والأقاليم المجاورة[44]. وبهذا، يرى الباحثان أنه قد وفت المقالة بعض النقاط المهمة لهذا العنوان.

الخاتمة

تناولت المقالة خلفية تاريخية عن مملكة كانم برنو، متناولاً عصورها التاريخية؛ العصر الكانمي والعصر البرناوي، وأهم القبائل التي استوطنت المملكة؛ كقبائل، الصو، والزغاوة، والبلاله، والكانمبو/الكانوري، والعرب الشوا. وهذه القبائل قد أدت دورًا هامًا في تأسيس المملكة، ودخول الإسلام وانتشاره فيها، حيث رافق الإسلام اللغة العربية. وقد ساعد ملوك كانم برنو في انتشار اللغة العربية بعوامل عدة، منها: جلب العلماء للمملكة، وإعطائهم الفرصة لتأدية فريضة الحج، وإغداقهم بالعطايا والهدايا الضخمة لاعترافهم بأعمالهم النبيلة وتشجيعًا لهم، وإصدار المحرم من الملوك للعلماء، لحفزهم في عملية التعلم والتعليم وإنشاء المدارس في البلاد العربية لتلقي العلوم العربية والإسلامية لحاشيتهم. ونتيجة ذلك، تطورت وازدهرت الثقافة العربية وآدابها في المملكة حيث أصبحت اللغة العربية لغة رسمية للدولة، فأصبحت الكتابات العربية تستخدم لسد حاجات المملكة في الإدارة، والقضاء، والمراسلة، والتدوين، بل استخدمت العربية لأغراض أدبية وفنية. وقد أسهم الملوك في تطور الأدب العربي في المملكة بشقيه الشعري والنثري، حيث أسهموا في مد تيار الشعر والنثر في بلاد السودان منذ زمن بعيد.

المصادروالمراجع والهوامش

1) J.F. Lavers: "Kanem-Borno to 1808" Groundwork of Nigerian History (ed) Obara Ikime, H.E.B. Ltd, Ibadan. 1980 p187

2) إبراهيم علي طرخان: **إمبراطورية البرنو الإسلامية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1975م، ص:43

3) إبراهيم علي طرخان، إمبراطورية البرنو الإسلامية، المرجع السابق ص:44.

4) إبراهيم صالح الحسيني (الشيخ): **تاريخ الإسلام وحياة العرب في امبراطورية كانم برنو**، طبعة مكتبة النهضة المصرية، 1980م، ص: 71

5) أمين الطيبي: **وصول الإسلام وانتشاره في كانم – برنو**، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، العدد الرابع، الجماهيرية الشعبية الليبية، 1987م، ص: 182

6) المرجع السابق، ص: 200

7) فضل كلود الدكو، الثقافة الإسلامية في تشاد في العصر الذهبي لامبراطورية كانم، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 1998م، ص: 59

8) Palmer. "The Sudanese Memoirs". Vol. I Frank lass and Co. Ltd. London 1967, p.2

9) S.J. Hogben and A.H.M. Kir-Greene. "The Emirates of Northern Nigeria, OxfordUniversity Press. London, 1966, p89

10) M.N. Alkali. "On the study of the history of Kanuri". Annals of Borno. Vol. IV. University of Maiduguri, 1987. p2

11) الحسيني، المرجع السابق، ص: 59

12) ياقوت بن عبد الله الحموي: **معجم البلدان**، المجلد الثالث، بيروت للبطاعة، 1957م، ص: 101

13) أمين الطيبي، المرجع السابق، ص:183

14) H. R. Palmer. "The Bornu Sahara and Sudan". Negro University Press, New York. 1970. p.14

15) المرجع السابق، ص: 14

16) J.S. Trimingham. "Islam in West Africa". Oxford University Press, London, 1959. p.83

17) محمد بللو، إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، تحقيق وتنغ لندن، 1957م، ص:9

18) H. R. Palmer. "The Bornu Sahara and Sudan". Negro University Press, New York. 1970 p.14

19) إبراهيم صالح الحسيني (الشيخ)، تاريخ الإسلام وحياة العرب مرجع سابق، ص:57

20) أبو العباس أحمد القلقلشندي: **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، الجزء الخامس، المكتبة الأميرية القاهرة (د/ت)، ص:281

21) J.S. Trimingham. "A History of Islam in West Africa". Oxford University Press, London, 1962. p.108.

22) ياقوت بن عبد الله الحموي، **معجم البلدان**، المجلد الرابع، بيروت للبطاعة، 1957م، ص: 432.

23) المرجع نفسه ص: 435

24) أحمد بن فرتوا، (الإمام): **غزوات السلطان إدريس ألومه في برنو**، تحقيق ديري لانجي، ستوتغارت، ألمانيا (د/ت)، ص: 2

25) A.D.H. Bivar and M. Hiskett. "The Arabic Literature of Nigeria to 1804: A provisional Account". The Bulletin S.O.A.S. London. 1962. p7

26) المرجع السابق، ص:7.

27) غلادثني أحمد سعيد (الدكتور)، حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، دار المعارف مصر، 1982م، ص:240.

28) المرجع السابق ص: 250

29) M.T. Yahya. "Historiography of Kanem-Borno *Ulama* and their contribution to learning". Paper presented at the conference on the Impact of *Ulama* in the Central Bilad – al- Sudan. C.T.S.S, University of Maiduguri, 1991. p9

30) أبو شعيشع مصطفى علي بسيوني: **برنو في عهد الأسرة الكانمية**، الطبعة دار العلوم العربية مصر 1984م، ص:51

31) المرجع نفسه، ص:53.

32) المرجع نفسه، ص:54.

33) A. M. Ajiri. The Maharam Tradition in Kanem-Borno: An Analysis of its Development and Significance. Unpublished Ph.D Thesis. Department of Islamic Studies, Bayero University, Kano. 2000. p92

34) المرجع السابق، ص: 93

35) إبراهيم صالح الحسيني (الشيخ): **الاستذكار لما لعلماء برنو من الآثار والأخبار**، مخطوط، ص: 115

36) كبير آدم تدن نفاوا: **المدخل إلى الأدب العربي النيجيري، في القرن التاسع عشر الميلادي**، الجزء الأول، الطبعة الثانية، 2011م، ص:113.

37) إبراهيم صالح الحسيني (الشيخ): الاستذكار، المرجع السابق، ص:120.

38) علي أبوبكر(الدكتور)، **الثقافة العربية في نيجيريا من عام 1960-1970م عام الاستقلال**، بيروت مؤسسة عبد الحفيظ السياط، الطبعة الأولى، 1972م، ص:120.

39) المرجع السابق، ص:120.

40) H. R. Palmer. "The Bornu Sahara and Sudan". Negro University Press, New York. 1970. p.32

41) J.S. Trimingham. "Islam in West Africa". Oxford University Press, London, 1959. p.95.

42) إبراهيم صالح الحسيني (الشيخ)، تاريخ الإسلام وحياة العرب المرجع السابق، ص: 101.

43) أبو العباس أحمد القلقلشندي، صبح الأعشى، الجزء الرابع، المرجع السابق، ص:304

44) المرجع السابق، ص:12